

~~مساءٌ تفاصيلُ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ تِبْصِيرَةِ الْمُسْلِمِ تِفْصِيلُ الْإِسْلَامِ~~

لأستاذ علي راضي أبوزريق

القاهرة - مدينة البعثة الإسلامية

السيرة وقائع صادقة منها مثلاً أن وفداً يهودياً كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نوى الوفد سفراً فسألوا رسول الله بهجتهم (هل من أمبر أصيام في أسفار) فاجاب رسول الله (ليس من أمبر أصيام في أسفار) فكيف بالله يفهم الترشيشي معنى هذا الكلام . أما رسول الله فعمدما سئل عن معرفته بهذه اللهجات اجاب (علمتني ربي فأحسن تعليمي) . ويحكي لنا عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، انه سمع مرة أحد المسلمين غير القرشيين يقرأ كلاماً في الصلاة لم يفهم منه عمر شيئاً ولا سمعه من رسول الله ، فهم يقتل الرجل ، ثم انتظر حتى اتى الرجل صلاته فامسكه عمر من ثيابه وسار به الى رسول الله واخبر الرسول بالخبر ، فأمر الرسول الرجل بأن يقرأ فقرأ فقال الرسول (هكذا نزلت) ثم أمر عمر بأن يقرأ نفس السورة فقرأها فقال رسول الله (هكذا نزلت) فعجب عمر والملائكة فقال رسول الله (إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منها) .

ولترجع قليلاً الى الوراء ونسن نزول القراءان وتقف او تتقدمن قليلاً متوجهلين الحادث العظيم ولننظر على انفسنا هذا السؤال : هل كان هناك اي داع لتوحيد العربية لو لم ينزل القرآن ، بل هل كان يمكن ان تقترب اللهجات العربية من بعضها لو لم يكن كتاب الله ؟ وأظن ان المقل والتأريخ يجيبان بصوت واحد لا والفال لا ، ففي اوربا كانت اللغة الالاتينية لغة الدولة والادب والفن ، ولم تنقض فترة من الزمان طويلة حتى اصبح لكل اقليم من اقاليم اوروبا لغة قومية خاصة لا تربطها بلغات الاقاليم الاخرى اية صلة ، فهل كان يمكن ان يكون مصير العربية افضل من هذا المصير او حتى مثلك ؟ لا اظن ذلك فان العرب كانوا اكثر تفككاً

لا شك ان اللغة العربية عند نزول القرآن كانت قد وصلت قيمة ما يمكن ان تصل اليه لغة .

وكان نضج اللغة العربية يتمثل في طرفين : اولهما : اللغة نفسها بما في حروفها ومخارجها اصواتها من كفاية للتعبير عن اي صوت قد يحتاجه الانسان ، وايثر دليل على هذا تسميتها بالضاد ، وذلك لامتيازها بهذا الصوت (الضاد) عن غيرها من لغات الارض ، ثم بما في تعبيراتها من كفاية لجوانب الحياة وقد ظهر هذا واضحاً في القرآن الذي نزل بلسان عربي وشمل كل اصول الحياة ونواحيها (ما فرطنا في الكتاب من شيء) ثم بما اتسعت له العربية فيما بعد من مستحدثات الحضارة وما نقل اليها من افكار وفلسفات لم تكن فيها اصلاً .

وثانيهما : الناطقون بهذه اللغة ، فقد عملت الطبيعة على اعدادهم اعداداً خاصاً جعلهم اهل لغة ولسان قبل كل شيء وذلك بما هياته لهم الطبيعة من ضيق في العيش وفراغ في الوقت ، فضيق العيش منع القوم من الاتجاه الى الدنيا والاهتمام بأمورها المادية . وفراغ الوقت تعاون مع ضيق مجالات الحياة ليوجه القوم الى القيم الجمالية ، ودور اللغة في هذا لا يخفى على أحد .

ومع هذا فان اللغة العربية وقت نزول القرآن لا يمكن ان تسمى لغة الا من باب المجاز ، فالفارق واسعة واضحة بين لهجات القبائل المتعددة ، فكان ابن القبيلة المعينة لا يفهم لهجة القبيلة الأخرى ، وعدا عن اللهجات الكثيرة المتباينة كالطمطمانية والخشنة ولغة اليمن ولهمجة قريش ، هذه اللهجات التي يذكرها لنا تاريخ الادب العربي تفصيلاً ، فقد ذكرت لنا كتب

والآن والامة العربية تعيش ظروفاً تشبه ظروفها قبل الاسلام ، نستطيع ان نقول انه لا يمكن للهجرات العربية الموجودة حالياً ان تلغي ، ولا بد للعاميات من ان تستغل وتدخل خضم الادب لتسهل على الشعوب العربية فهم أدبائها ، خاصة وأنه لا توجد ضرورة لتوحيد الهجرات العربية ، فالنظم السياسية مختلفة والقائد مشتبه وأكثرها مستورد من امم اخرى ، فليست العربية بذات بال في هذا الصراع ، بل ان السياسي العربي مضططر لاستعمال كلمات واصطلاحات لا تمت لتاريخ هذه الامة بصلة ، ذلك لأن دعوته السياسية تكونت في ظلال لغة اخرى بعيدة عن العربية .

واعتقد بهذا ، انت تكون قد وصلنا الى نتيجة حاسمة وهي ان مشاكل اللغة العربية ليست مشاكل فنية بقدر ما هي مشاكل سياسية وفکرية ، وهذا بالطبع ينطبق على المشكلة العربية الاولى وهي للهجرات العامية .

وبالتالي نستطيع ان نقول ان اللغة العربية لن تأخذ طابعها المميز ولهجتها الفصحى الواحدة ما لم تدع لذلك ضرورة ماسة تدفع الانسان العربي من داخله للتخلص من لهجته السهلة ودراسة اللغة الفصحى ولا يمكن ان تكون هذه الضرورة غير القرآن ، اقول هذا بلا تحفظ ولا تعزيز ، وذلك للاتي :

1 - لن ينزل قرآن آخر ، ولن يوجد كتاب له قداسة القرآن واهميته ، اذ انه لا انباء بعد محمد صلى الله عليه وسلم .

2 - المبادئ المستوردة لا تحتاج لغة العربية بل ستكون سبباً في انهيارها .

3 - مجرد الدعوة للوحدة العربية ويشها في نفوس العرب على اي أساس كان غير الاسلام لا يليغو اطلاقاً لتوحيد الهجرات العربية ، ولا يمكن ان يكون دافعاً للتخلص من الهجرات المحلية .

فعمدما نعود الى القرآن وندخله كل جوانب حياتنا وعلى كل المستويات ، عندها فقط ، تصبح اللغة العربية الواحدة ضرورة وواقعاً ويقبل عليها كل العرب بل وغير العرب من المسلمين ، لأن اللغة العربية الواحدة تصبح في ذلك الحين لا مجرد لغة بل جزءاً أساسياً في الاسلام .

ونحن لا نريد المودة الى القرآن من اجل العربية (بالطبع) ولكن نعود اليه عندما نتيقن انه الطريق الوحيدة لخلاصنا .

وبعداً من اوربا ، فقد كان للأخيرة دولة واحدة بينما كانت الامة العربية قبائل لا يربطها الا حد السيف او سنان الرمح .

واضح اذن ان القرآن هو السبب الاول والآخر في توحيد الهجرات اللغة العربية وجعلها لغة واحدة .

والقرآن قام بهذا الدور بما فهمه المسلمون الاولى عنه انه دستور الحياة والدولة ومصدر القوانين والسلطات وكتاب العقيدة ومنهاج العبادة ومنظم الاخلاق . فالدولة لا تكون شرعية اذا اهملت آية واحدة منه ، وكل انسان في الدولة مسؤول عن تطبيق القانون والمحافظة عليه بل المطالبة بتنفيذها بأمانة اذا لزم الامر ذلك . وهو كما قلنا كتاب عبادة يرجع اليه في كل صغيرة وكبيرة في حياة المسلم ، ولا تقبل صلاته التي يمارسها خمس مرات يومياً ، الا بتلاوة آيات منه ، كما ان قراءته في ذاتها عبادة يؤجر الله عليها .

وليس هذا فحسب ، فالقرآن كلام الله لا يمكن ترجمته وتبديله وذلك لأن طبيعة المجزء القرآنية لا تتم الا اذا يقي على حاله ، فاعجازه في بلاغته ، وببلاغته مرتبطة باللسان العربي ، وهذا هو الذي رفع مكانة اللغة العربية فأصبحت مقصداً بعد ان كانت وسيلة تفahم كل لغات الارض ، فدراسة اللغة العربية بدقة وعمق ، ودراسة اساليب الجمال العربي أصبحت الوسيلة السليمة الفعالة لهم القرآن الكريم الذي ذكرنا اهميته في حياة المسلم الخاصة وال العامة .

ونخرج من هذا بنتيجتين هما :

1 - ان القرآن اعطى اللغة العربية معنى اكبر من كونها لغة .

2 - ان الهجرات العربية توحدت عندما وجدت الحاجة لذلك .

اذن لا بد من حاجة وضرورة لتوحيد الهجرات لا اللغة العربية فحسب ولكن لابة لغة .

وبما ان اللغة شيء يستعمله كل الناس المثقف وغير المثقف والامي والتتعلم بنفس النسبة ولنفس الغرض ، فلا بد ان يكون الداعي لتوحيد الهجرات لغة ما امر عظيم يدفع الناس من اعمالهم ولداخل نفوسهم ، ولا يجذبهم جنباً ولا اظن ان امراً ما يستطيع ان يجعل الناس لتوحيد لهجراتهم (مهما عظم) ، لأن الناس مهما كانت معادنهم قوية فإنهم دائمًا يميلون الى الاسهل ، والاسهل هنا ، هو ما شب عليه اللسان ، وهذه حقيقة تؤكدها تواریخ لغات الارض جميعاً ، اذ كانت دائمًا تعيل للتعدد والتبعاد والتباين فيما بينها .